مجلة جامعة الأقصى للعلوم الإنسانية، المجلد الثالث والعشرون، العدد الثاني، ص١-١٩، يونيو ٢٠١٩
ISSN ٢٥١٨-٥٨١٠

بلاغة التركيب لآيات "ظلم النفس" في القرآن الكريم

د. محمد حاتم أبو سمعان *

DOI: 10.34065/1262-023-002-001

الملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة بلاغة الصور التعبيرية أو التراكيب اللغوية لـ "ظلم النفس" في القرآن الكريم، حيث يحاول بالتحليل الكشفَ عن الأسرار الدلالية الدقيقة لصيغ "ظلم النفس"، وتراكيبها التي انْتُظِمَت في الأساليب البلاغية التي وردت داخلها في آي الذكر الحكيم البالغة ثمانية وعشرين آية منه، ثم تَمَّ تقسيمها إلى أربعة محاور. كما هدف البحث إلى بيان جزء من وجوه الإعجاز البلاغي تطبيقًا على آيات ظلم النفس وصيغها في القرآن الكريم، مستلهمًا في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

Injustice of "The Rhetoric of Structure in the Verses of the in the Holy Quran"the Soul

Abstract

The Rhetoric of Structure in the Verses of the "Injustice of the Soul" in the Holy Quran

This research deals with the rhetoric of the expressive images or the linguistic structures of the "injustice of the soul" in the Holy Quran, as it tries to analyze and delve deeper into the semantic secrets of the formulations of the "injustice of the soul" and their structures, which were organized in the rhetorical styles included in twenty eight verses of the Holy Quran. Inspired by the analytical method after the inductive one, this research aims to identify a part of the rhetorical miracles of the Quran applied to the verses of the injustice to the soul and the precise connotations of their formulations in the Holy Quran.

---

* جامعة الاقصى- غزة.

- **مقدمة: بين البلاغة وبلاغة التركيب:**

لا تقفُ روعة البلاغة العربية عند حدود الظواهر البلاغية في حدِّ ذاتها أو في تعدادها وبيان أنواعها كما يتصور الكثير، بل تتعداها إلى مكامن تلك الظواهر البلاغية وخفاياها، بمعنى دراسة التراكيب اللغوية التي جاءت عليها، والتي سُبِكت فيها تلك الظواهر البلاغية. وهذا هو مكمنُ الإعجاز ومناط البلاغة العربية العريقة الأصيلة التي تُعبِّر بلفظ الظاهرةِ عن مكامن الشعور ودخائل النفس وخلجات العواطف؛ فتُحيل الجماد حيًّا والخُرسَ مبينةً ناطقة أبلغ نطقٍ وأجلاه عن المعنى الداخلي، وهذا ما عبَّر عنه غير باحثٍ بالمعنى الثاني أو بمعنى المعنى. (عامر، ١٩٧٤: ٣٢٦)، وأنَّ الخواطر والمنازع النفسية والصور لا تنكشف إلا بالتدقيق في منازع الصياغة وأحوال المباني. (أبو موسى، ١٩٨٠: ٨).

ونحنُ وهم من المعاصرين لسنا بحائزين قَصَبَ السبقِ في هذا التنظير أو ادعائه، بل لقد سبَقَنا إليه الجِلَّة من علمائنا الأولين، أولئك الموسوعيون بحَقّ، الناظرون في ثنايا التراكيب وما وراء البلاغة الظاهرة بكل ألوانها وأساليبها الرفيعة الشريفة. لكنَّ سنِيَّ حدَثان التنظير قد غلبَ أحيانًا كثيرةً على التطبيق في هذا المضمار لصعوبة خوض غماره الشائكة وأمواجه العالية.

يقف على رأس هؤلاء الأفذاذ الإمام البلاغي النحرير أبو بكر عبد القاهر الجرجانيُّ (ت٤٧١هـ) فهو من أوائل من ابتدأ بالنص والتنبيه على ما نحن بصدده الآن منذ البداية ومنذ بداية البداية، فيُسَمِّي سِفرَهُ البلاغي الثاني بـ "أسرار البلاغة". وقلما يلتفت الدارسون إلى سر التسمية التي يُلمح من خلالِه الإمامُ إلى السرِّ اللغوي المُعْجِزِ الذي يقفُ خلفَ تركيبِ الظاهرة البلاغية لا إلى الظاهرة البلاغية ذاتِها، كما يُرشدنا– من خلاله– إلى ضرورة عدم الوقوف أو التوقُّفِ عند مجرد الظاهرة البلاغية من معانٍ أو بيانٍ أو بديع؛ إذ لم يُسمِّ كتابَهُ بكتاب البلاغة بل بأسرار البلاغة.

ثم إنه– يرحمه الله– يتحدث بعد ذلك بالنص الصريح مرارًا وتكرارًا في غير موضعٍ من كتابَيْه، وما نظرية النظم عنده إلا بحثٌ أصيلٌ عميق في النظر والتمحيص في أسرار التراكيب البلاغية ودراسة لطائفها وصِيَغها التي جاءت عليها لتؤديَ المعنى ومعنى المعنى؛ فتُدْخِلَهُ في القلوب دخولًا سلِسًا سريعًا لا انفكاكَ معه إلا بعد استقراره فيه بأدقِّ تفاصيله، استقرارًا أخبر عنه المولى سبحانه بقوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾. (النساء: ٦٣).

فإذا كان هذا التغلغل في تراكيب الظواهر البلاغية للقرآن الكريم وتمحيصها وتقليب أوجه إعرابها وتشكيلاتها بغية استكناه أسرارها الدلالية كان هذا عين الإعجاز البلاغيّ للقرآن "واعلم أنك لا تشفي الغلة، ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حدَّ العلم بالشيء مجملًا إلى العلم به مفصلا، وحتى لا يُقْنِعَكَ إلا النظر في زواياه، والتغلغل في مكامِنِه، وحتى تكون كمن تتبَّعَ الماء حتى عرفَ منبَعَه وانتهى في البحثِ عن جوهر العودِ الذي يُصنع فيه إلى أن يعرف منبته ومجرى عروق الشجر الذي هو فيه". (الجرجاني، د. ت: ٢٦٠).

أما الوقوف عند الظواهر والاكتفاء بتجليتها وبيان أنواعها فهو على حُسنه للمبتدئ فإنه قبيح عند الاستدلال به على الإعجاز البياني للقرآن الذي هو جوهر دراسة البلاغة العربية ومنها ينبثق، وهذا ما أشار إليه الإمام أبو هلال العسكري في بيانِ وصفِ من اقتصر على إثبات إعجاز القرآن على جهة عجْزِ العرب أن يأتوا بمثلِه، دونَ التدقيق في مُحْكَمِ تراكيبِه وتركِ التنقيبِ عن بليغِ أسرارِه "وقبيحٌ – لعمري– بالفقيه المُؤتَمّ به، والقارئِ المُهتَدى بهديه، والمتكلم المُشار إليه في حُسنِ مناظرَتِه، وتمامِ آلتِه في مجادلتِه، وشدَّةِ شكيمتِهِ في حِجَاجِه، وبالعربيّ الصليب، والقُرَشِيّ الصريح ألا يعرفَ إعجازَ كتابِ الله تعالى إلا من الجهة التي يعرفه منها الزّنجيُ والنَّبَطي، أو أن يستَدِلَّ عليه بما استدل به الجاهل الغبي". (العسكري، ٢٠١٣: ٧– ٨).

من هنا جاء البحث خطوة في هذا الطريق الشائك الشائق الممتع بتقليب الظاهرة على التراكيب اللغوية التي جاءت عليها في القرآن الكريم، أو التي شاء المولى الجليل أن تجيء عليها في القرآن حاملة معها الدلالة المُرادة على أتم وجه، ولا يخفى على ذي لُبٍّ أن تواتر المعنى الواحد على ظاهرة أو أسلوب لغوي معين في النص القرآني لا يأتي اعتباطًا أبدًا، بل هو ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. (فصلت: ٤٢) مفصلا بالغ الدلالة غير ذي عِوَج.

●تمهيد:

تخصص هذا البحث بمفردةً قرآنية شائعة شغلت القوم سابقهم ومعاصرهم ألا وهي "مفردة ظلم النفس" في القرآن الكريم خصوصًا؛ ذلك أنها تتعلق بمصائر العباد المتعلقة بذواتهم لا بذوات غيرهم، فالظلم أنواع متعددة منها ظلم الإنسان لنفسه.

والناظر في آي الذكر الحكيم يرى أن مفردة الظلم عمومًا قد شاعت في التعبيرات القرآنية شيوعًا كبيرًا يصعب معه أن يحيط بها بحث واحد من جميع أطرافها، فقد وردت في القرآن العظيم زُهاءً من مائتين وثمانين مرة أو يزيد. (عبد الباقي، ١٩٩٦: ٥٣٣– ٥٣٨)، أما ظلم النفس خاصة فورد في

ثمانيةٍ وعشرين موضعًا منه. (الأصفهاني، ١٩٩٠: ٥٣٨- ٥٣٩، وعبد الباقي، ١٩٩٦: ٥٣٣- ٥٣٨).

ثم قام هذا البحث بتتبع الصيغ اللغوية التي جاءت عليها مفردة ظلم النفس في المواضع القرآنية موضع البحث، فإذا بها تتكون من تراكيب لغوية عامة ومحددة تأخذ بعد ذلك صورًا متعددة بخروجها عن الصيغة العامة خروجًا طفيفًا، وبعد الاستقراء الدقيق لهذه الصيغ، وأمكن تقسيمها بلاغيًّا إلى أربعة أقسامٍ رئيسة، هي ما جاء من هذه الصيغ في أساليب الخبر البلاغي مُثْبَتِهِ ومَنْفِيِّهِ، وما جاء منها في أسلوب الشرط، وأسلوب الطلب، وأخيرًا ما جاء منها في أسلوب صِيغِ الوصف للمفرد أو للجمع.

فإذا بأسلوب ظلم النفس في القرآن الكريم- بصيغه المتعددة- ينتظم تحت منظومة بلاغية مُحكمة بعد توزيعها على الأساليب البلاغية الأربعة السابقة. لنرى أن ظلم النفس في الخبر المنفي جاء بصيغة رئيسية ذات طرفين، وهي صيغة النفي بـ "ما"، ثم فعل الظلم مقترنًا بكان الناقصة، ثم الاستدراك المهمل بـ "لكنْ"، ثم جملة كان واسمها وخبرها. على الصيغة الكاملة ﴿ما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾، ثم كان لها صورٌ ثلاث، هي: ما اشتملت على جملة كان الناقصة في طرفيها وهي الصيغة الكاملة، وما خلت من جملة كان الناقصة الأولى وهي الصورةُ الثانية، أما الأخيرة فهي ما خلت من كان الناقصة بمعموليها من كلا طرفيْها. ولِكُلِّ صورةٍ منها دلالةٌ ومعنىً دقيقٌ خاص بها.

بينما التزمت هذه المفردة صيغتين اثنتين في الخبر المثبت، هما: جملة ظلم اسمية تليها جملة فعلية، والثانية جملة فعلية فقط. أما الاسمية فتتكون من اسم الظلم مجموعًا مضافًا إلى النفس "ظالمي أنفسهم" ثم تليها جملة فعلية "قالوا، فألقوا"، على صيغة"... ظالمي أنفسهم، قالوا، فألقَوْا...".

أما في أسلوب الشرط فإما أن تقع في جملة الشرط ذاتها أو معطوفة عليها والمعطوف يأخذ حكم ما عُطفَ عليه، وإما أن تقع في جملة جواب ذلك الشرط. وكذلك الحال مع أسلوب الطلب الذي لم يأت ظلم النفس معه- في القرآن الكريم- سوى في النهي والنداء، فإما أن يكون وصفًا أو حالًا للجمع أو معطوفًا عليهما، وإما أن يقع وصفًا أو حالًا للمفرد، أو معطوفًا عليهما، أو ما في حكمهما.

وبعد تتبع جميع تلك الصيغ اللغوية القرآنية وصورها المتعددة بعين التدقيق والنظر، ثم بعيون المفسرين والشراح، ثم بعين الجمع بين أشتات تلك الدلالات والشروح، تجلت تلك النتائج من أنواع الدلالات وألوانها التي يصح في خلاصة البحث أن ننتظر بعد كل صيغةٍ منها الدلالةَ التي تؤديها قبل

إكمال السياق الواردة فيه؛ لانطباق حكم دلالاتها على غيرها من الصيغة ذاتها. وهذا مما يبيّنُ شيئًا جديدًا من الإعجاز البلاغي لكتاب الله تعالى الذي تتكشف أسراره التي لا تفنى ولا تَخْلَقْ، وتلك حكمة بالغة فهل من مدَّكر؟

المحور الأول- بلاغة ظلم النفس في الأسلوب الخبري في القرآن الكريم: ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول- بلاغة ظلم النفس في الأسلوب الخبري المنفي:

إنه بعد الإنعام في هذه التراكيب اللغوية القرآنية البليغة للأساليب الخبرية المنفية التي ورد فيها ظلم النفس؛ لَيَتَكَشَّفُ لنا من الأسرار الدلالية المُعجزةِ التي أودعها البارئ- عز وجل- فيها، وهذه حكمةٌ بالغة. إنَّ الأسلوب القرآني الخبري حول هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم تواتر على صيغة عامة هي صيغة النفي بـ "**ما**" + فعل الظلم "**ظلمونا، ظلمهم، ظلمناهم، كان الله ليظلمهم**" + الاستدراك المهمل بـ "**لكنْ**" + جملة كان واسمها وخبرها "**كانوا أنفسهم**" **أو** "**أنفسهم**" دون جملة كان الناقصة. على الصيغة الكاملة "**ما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**". وعليه فإن هذه الصيغة إجمالًا تتكون من جزأين، الأول: جملة نفي الظلم، والثانية: جملة الاستدراك المهمل. وبعد تصنيف هذه الصيغة الكاملة على الآيات موضع الدراسة تبين أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ رئيسة، هي: قسم يتضمن كان الناقصة في الجملة الأولى والثانية، وقسم يتضمن كان الناقصة في الجملة الثانية ولا يتضمنها في الأولى، وقسم ثالث يخلو من كان الناقصة في كلا جُمْلَتَيْه.

فأما القسم الأول: وهو ما تضمن كان الناقصة في جملتيه كلتيهما "**ما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**"، يظهر أنه يحمل **دلالة** الإهلاك والإبادة والإدالة لأولئك المتحدث عنهم إدالة تامة وإهلاكًا ماحقًا بعد استنفاد جميع أدوات الإبلاغ والإنذار، وإغراقهم في ظلم أنفسهم إغراقًا لا رجعة عنه ولا محيد؛ طيًّا لصفحة عنادهم وكفرانهم آياتِ ربهم وعصيانهم رسَلَه. إما بالخسف أو الصيحة أو الإغراق أو عاتية الريح الصرصر أو الإمطار بسيء الحاصب أو جمعًا بينها.

فمثلًا بعد استعراض قصص الأقوام الغابرين الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسُلَه في سورة العنكبوت، جاءت هذه الصيغة القرآنية الخبرية عن ظلم النفس "وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" إثْرَ أخذِ ربك لتلك القرى الظالمة أخذًا أليمًا شديدًا ماحقًا لم يُبقِ منهم ولم يَذَر بألوان العذاب السابقة جميعها عند قوله تعالى: ﴿**فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا**

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. (العنكبوت: ٤٠) وإنما فَصَّلَ ألوان الأخذ في هذه الآية الكريمة؛ لاشتمال السياق القرآني السابق لها على تلك الأقوام الغابرة، فكان الحاصب لقوم لوط، وأما ثمود وأهل مدين فَأُخذوا بالصيحة، بينما خُسِفَت الأرضُ بِقارونَ، أما الإغراق فكان مصيرًا لقوم نوح وفرعون وجنوده. (الزمخشري، ١٩٩٨: ٤- ٥٤٩، والقرطبي، ٢٠٠٦: ١٦- ٣٦٣).

والمستقرئ لأخبار القرآن الكريم الواردة في سياق البحث يرى سرًّا آخر عجيبًا، وهو اقتران الخبر فيها بفعل المضي القرآني المتكرر بـ (كان الناقصة ومعموليها) إذ إنَّ من أبرز ما تدل عليه هذه الصيغة القرآنية- كان ومعموليها- الرسوخ والثبوت والحدوث في المضي، "فالإضافة الدلالية الأبرز فيها هو ما تضفيه كان من المضيّ للأخبار والأسماء الداخلة عليها، وهي دلالة بليغة في محلها تعضد وتثبت ما جاء من المعنى الخبري المثبت من جهة، وتشير من طرف خفي إلى ما كان من ارتكاب هذه الأحوال والأشياء والأمور سابقًا من عادات في الجاهلية أو ما بعدها من جاهلية أي عصر، من جهة أخرى (أبو سمعان، ٢٠١٥: ٨٤).

والشيء ذاته وقع معنا هنا، إذ تدل جميع الجمل القرآنية السابقة واللاحقة للصيغة المتحدث عنها على المضي التام بل المغرِق في القِدَم كـ "نبأ الذين من قبلهم"، "الذين من قبلهم"، "ما قصصنا عليك من قبل"، "كيف كان عاقبة الذين من قبلهم"، "بما كانوا يفسقون"(*). فمجيء هذه الصيغة التي تثبت وتؤكد حصول كفران تلك الأقوام ومُضِيّ حدوثه إنما يلتقي مع منظومة العدل الإلهيّ الذي يؤكده ما جاءت آيات البحث تترى دالة عليه نافية للظلم عن المولى الجليل سبحانه مثبتة أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، مقترنةً مباشرةً بكان الماضية المثبتةِ ظلمهم "ما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون". هذا كله بالإضافة إلى إبلاغهم نذارةً وبشارةً بالرسل تارة وبالكتب أخرى وبالآيات والمعجزات ثالثة ورابعة. قال الإمام القرطبي "ولكن ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم". (القرطبي، ٢٠٠٦: ٧- ٢٩٨).

(*) التوبة: ٧٠، النحل: ٣٣، النحل: ١١٨، الروم: ٩، العنكبوت: ٣٤، على الترتيب.

واستمرارًا لأسلوب التكرار القرآني البليغ في إنذار اللاحقين بآيات إهلاك الأولين؛ إذ إنَّ الاعتبار لا يكون ممن هلَكَ أو فنيَ بل لِمَن بقيَ أو لَحِق. يُكَرِّرُ الحق ويُقرر أنهم هم الذين حكموا على أنفسهم بذلك العذاب الماحق المُبِيد؛ نتيجةَ ظُلمهم أنفسهم بالأسلوب ذاته وبتلك الصيغة. فتكرر مع طائفة الكافرين عمومًا، وعيدًا وتهديدًا من عدل الله معهم بأن يأخذهم- كما أخذ الذين من قبلهم- بظلم أنفسهم لأنفسهم في موضعِ سورة الروم أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾. (الروم: ٩)، وهذا الوعيد هنا يأتي مشحونًا بالتوبيخ الذي أفاده الاستفهام الإنكاري في مطلع الآية بأنكم رأيتم بأم أعينكم تلك الحضارات الضخمة التي صيَّرها ظلمها إلى أن أديلَتْ وأصبحت أثرًا بعد عين، وأنتم مع ضعفكم وقلة مالكم وعمرانكم مقارنة بالسابقين لأنتم أجدر أن تتبعوا أمر ربكم، وألا تظلموا أنفسكم. (الشعراوي، ١٩٩١: ١٨- ٤١٣).

وطائفة أخرى خطيرة يتكرر معها ذلك الوعيد الشديد بتلك الصيغة ذاتها، هي طائفة المنافقين؛ حسمًا لقضيتهم بإيعادهم بالإفناء والإبادة كالسَّالِفِيْنَ من الظالمين السابقين، في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾. (التوبة: ٧٠)، فقد جاءت هذه الآية في سياق تحذير المنافقين الذين يلمزون النبي ويؤذونه؛ لتكونَ لهم عبرةً وعِظةً لعلهم يحذرون ظلم أنفسهم، أي: مَثَلُكُم كَمَثل الذين من قبلكم كانوا أشد منكم وأعظم فأُهلِكوا فأنتم أحرى بالإهلاك لضعفِكم. (ابن عطية، ٢٠٠١: ٣- ٥٦).

ومن اللافت في هذا السياق أن هذه الصيغة القرآنية البليغة قد جاءت مكررة ثلاث مرات في سياق وعيد بني إسرائيل وحدهم في أكثر من سورة، بينما وردَ مرةً واحدةً في حق الكافرين. إلا أنه وبعد شديد إنعام النظر وإنعام التأمل في أقوال المفسرين والشراح تبين أنها لا تحمل دلالة الإهلاك التام أو الإبادة الكاملة للمتحدث عنهم وهم الذين هادوا؛ ما يجعل الباحث يُرجع تغير الدلالة لذلك التغير الطفيف في الصيغة السابقة، الذي ربما لا يلتفت إليه الكثير، ألا وهو خلوُّها من كان الناقصة الأولى فقد جاءت تلكم المرات الأربع بحرف النفي ثم فعل الظلم مباشرة دون أن تفصل بينهما كان- وهو القسم الثاني للصيغة الرئيسية التي أسلفنا الحديث عنها؛ ما يجعلنا نُرجِعها إلى القسم الثاني من أقسامها وهو ما تضمن كان الناقصة في جملته الثانية دون الأولى، على صيغة: **"ما ظلمونا /ظلمناهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"**.

وإنما تحمل **دلالة** العقوبة الزاجرة الرادعة عن عدولهم إلى ظلم أنفسهم بكفران نعم ربهم وآلائه المتعددة عليهم، فكانت جزاءً بمثل معصيتهم وعنادهم، مُكْتفيةً بإثبات عدل المولى سبحانه بقصر وقوع الظلم من ذوات المخاطبين أنفسهم دون ذكر عقاب مُهْلِكٍ أو مُبيدٍ، كما في قوله تعالى من سورة

البقرة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾. (البقرة: ٥٧)، تاركة التعقيب بالعقوبة في الآية اللاحقة؛ لمجيئها في موقف دقيق من قصة بني إسرائيل هو موقف توبته- سبحانه وتعالى- عليهم من عنادهم ومجادلتهم سيدنا موسى- صلى الله عليه وسلم- عندما طلبوا منه رؤية الله جَهرة(*)، وموقف رحمتِه بهم بعد إذا أعادهم أحياء بتظليل الغمام عليهم من حر الصحراء في التيه، وتنزيله إليهم أفضل الأطعمة والأشربة منًّا وسلوى. وبعد هذا كله ظلموا أنفسهم فعاندوا أمر ربهم وكفروا نَعماءه بدل أن يشكروه. (الألوسي، د. ت: ١- ٢٦٤).

(*) وهي الآية السابقة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (البقرة: ٥٦).

والشيء ذاته يتكرر في مشهد سورة الأعراف عندَ قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾. (الأعراف: ١٦٠)، وهو مشهد امتنان الله تعالى عليهم بنعم عظيمة ومِنَنٍ جسيمة زائدة على المقام السابق بإيجاد الماء كسرًا لحدة العطش في صحراء التيه مع إعلام كل فرقة مشربهم "وصارت كل عينٍ تجذب أصحابها فلم يتزاحموا". (الشعراوي، ١٩٩١: ٥٢٧/٧)، وجاءت الجملة الأولى خالية من كان الناقصة؛ فخرجت عن دلالة الإهلاك الماحق والإدالة التامة إلى مجرد دلالة رجوع عاقبة ظلمهم عليهم أنفسهم؛ تأديبًا وردعًا وزجرًا "وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم، ولكن كانوا يضرون أنفسهم، ويرجع وبال ظلمهم إليهم". (الزمخشري، ١٩٩٨: ٢- ٥٥٢).

أو دلالة العقوبة بتحريم بعض أصناف المطعومات جزاءً وفاقًا لكفران حلّها لهم في وقت سابقٍ كما أشارت الآية الثالثة، وهي آية سورة النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾. (النحل: ١١٨). "أي لم نضع العقوبة بتحريم تلك الأشياء عليهم في غير موضعها، بل هم طرقوا إلى ذلك، وجاء من تسبيبهم بالمعاصي ما أوجب ذلك". (ابن عطية، ٢٠٠١: ٣- ٤٣٠).

أما الموضع الرابع- والوحيد الذي جاء في حق الكافرين- لهذه الصيغة ذات الفعل الناقص الواحد فوردت في سورةِ النحل أيضًا، وهي قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ **وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾. (النحل: ٣٣)، فقد

يتوهم الناظر لأول وهلة أنها تتضمن عذابًا مستأصلًا للمخاطبين بدلالةِ قوله: "أو يأتيَ أمر ربِّك"، وهذا مجانب لجادةِ الصواب؛ إذ إنَّ العذاب المستأصل والإهلاك التام للسابقين من الأقوام الظالمة وليس لهؤلاء المخاطبين الآن، بدليل رجوع ضمير المفعول في "ظَلَمهم" إلى أقرب اسم وهو "الذين من قبلِهم"، وعليه لم تتضمن تلك الصيغة دلالة الإدالة الماحقة، إنما تضمَّنت دلالةَ العقابِ الزاجِرِ كما اختصت بتأكيد نفي الظلم عن الذات العلية بقصره على الكافرين والجاحدين وحدهم، وكذا غرض تقديم المفعول "أنفسهم" على فعله يظلمون؛ ما يفيد نفي الظلم عن المولى سبحانه وتأصله في ذواتهم "أي كانوا جبلة وطبعًا يظلمون أنفسهم". (البقاعي، د. ت: ١١- ١٥٠).

وأما القسم الثالث لهذه الصيغة القرآنية لظلم النفس في القرآن الكريم- وهي الأقصر- فهي تلك التي تخلو من كان الناقصة ومعموليها في جملة النفي وجملة الاستدراك المهمل. حيث تأتي بحرف النفي يليه فعل الظلم فقط، ثم "لَكِنْ" المهملة يليها فعل الظلم على صيغة "**وما ظلمناهم/ ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم**"، فقد حمل الدلالتين السابقتين.

وقد وردَ هذا التركيب لتلك الصيغة مرتين اثنتين فقط في التنزيل الحكيم، أولاها في سورة آل عمران حاملة **الدلالة** الثانية من العقوبة والجزاء على الظلم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾. (آل عمران: ١١٧).

فقد تمثلت العقوبة على كفرهم ومعصيتهم أمر ربهم. (القرطبي، ٢٠٠٦: ٥- ٢٧٢)- وهو ظلمهم أنفسهم- إهلاكًا للحرث بعد أنْ استوى على سوقِهِ وأعجبَ الزُرَّاعَ نباتُه؛ فصار هشيمًا تذروه الرياح كأن لم يكن بالأمس شيئًا مذكورًا. فرغم ما تضمنته الآية من تمثيل بديع مُعجِز تمثل في صورة زرع بلغ الجَهد بأهله كل مبلغٍ حتى إذا استوى على سوقه، التفت به ريح غضوب صرصرٌ عاتيةٌ؛ فأحالته هشيمًا محتظرًا. وسر البلاغة فيه من أوجه: أن المخاطب فيه واجَهَ مصدر الرعب والإبادة أولًا، وهي الريح الغضوب قبل الزرع وحرثه، ثم وُصِفت الريح على شرها بشيء مدمرٍ آخر هو الجملة الاسمية "فيها صرّ"، ووصفٌ آخر بالتصويب والقصد لا العَرَض أو غير المقصود في جملة "أصابت" الفعلية؛ ليجمع لتلك الريح المُرْعِبة ثبوتًا بالاسمية وتجددًا بالفعلية، ثبوتًا للصِّرّ المُهلكِ فيها وتَجَدُّدًا لتصويبها على حرث أولئك، ثم دلالة القصر الذي جاءت الجملة الاسمية لإثباته وهو: أنَّ تلك الريح تضمنت عنصرًا مهلكًا مزعجًا هو الصر لا غير؛ فلم تتضمن أدنى شيء من خير مثلًا، ثم استعمال

حرف الظرفية "في" الذي أفاد أن أحد عناصر العذاب "الصر"(*) مصدره الريح العاتية فهو مظروفٌ فيها وهو عنصر آخر للعذاب والإهلاك. ورغم هذا كله فإنَّ هذا التمثيل حمل فقط عقوبةً على معصية ولم يحمل إدالة ماحقة أو إهلاكا مُفْنيًا عن صفحة البسيطة.

(*) وقيل إن الصر: صوت النار التي في الريح. (ابن عطية، ٢٠٠١: ١– ٤٩٥).

وثاني ورودها كان في سورة هود حاملًا **الدلالة الأولى** من الإهلاك التام والإبادة الماحقة للقوم المُتَحَدَّثِ عنهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ **وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾. (هود: ١٠١). إن المتحدث عنهم في هذه الآية الكريمة قد أوغلوا في ظلم أنفسهم إيغالًا ليس بعده بَعْدٌ(**). كفروا بدعوة ربهم وعصوا رسله وعطلوا كتبه وأصروا واستكبروا استكبارًا؛ فكان أن غضب عليهم فأخذتهم أخذةً بل أخذاتٍ رابيات أَخْذَ عزيز مقتدر؛ فأباد خضراءهم جميعًا واستأصل بيضتهم.

(**) وهم أقوام سيدنا نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وفرعون موسى، كما جاء في أول السورة إلى الآية المتحدث عنها (١٠١).

استئصالًا أليمًا شديدًا كما جاءت به الآية التالية(*). وفيه ما فيه من دلالة التهديد لغليظي الأكباد من قريش. (البقاعي، د. ت: ٩– ٣٧٢)؛ ليُعرضوا عن أندادهم ويلتزموا أمر مولاهم.

(*) الآية ١٠٢ من سورة هود، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

المطلب الثاني– بلاغة ظلم النفس في الأسلوب الخبري المثبت:

إذا وصلنا إلى نوع آخر للخبر البلاغي في هذه الآيات، وهو الخبر المثبت وجدنا لجملته نوعين، الأولى: جملة اسمية تليها جملة فعلية، والثانية جملة فعلية فقط. أما الاسمية فتتكون من اسم الظلم مجموعًا مُضافًا إلى النفس "**ظالمي أنفسهم**" ثم تتلوها جملة فعلية "**قالوا، فألقوا**"، على صيغة "...**ظالمي أنفسهم، قالوا، فألقوْا**..."، وبعد طول التمحيص وجدَ الباحث أن هذا الضّرْبَ من الخبر جاء حاملًا **لدلالة** التمادي في الكفر حتى الموت عليه، أو الموت على ملة الكفر بعد التمادي فيه طوال الحياة، حيث ورد في القرآن الكريم في موضعين فقط حملا الدلالة التي أشرنا إليها.

أولاهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ **ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ** قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾. (النساء: ٩٧). فظلم النفس في هذه الآية العظيمة هو الشرك بالله– عز وجل– والكفر به،

أما سببه فيها فهو ترك دار الإسلام والإقامة في دار الكفر مع الذل والاستضعاف حيث لا يُتمكَّنُ من إقامة شعائر الدين. (البقاعي، د. ت: ٥- ٣٧٢)، وملازمة الإقامة في دار الكفر يستلزم الموت على الكفر طاعةً لولي تلك الدار، أو متابعةً لمفروض عادات أهلها، إذ سبقَ الأمرُ الإلهيُّ بالخروج من دار الكفر تلك؛ لذا جاءت الجملة الفعلية المُعَقِّبة توبيخًا. (الشوكاني، د. ت: ١- ٨٠١) من الملائكة الكرام لهؤلاء المستضعفين الذين قُبضوا على الكفر استضعافًا بطريق الاستفهام "قالوا فيم كنتم؟"

هذا وإنَّ من أبرز الأدلة على دلالة الموت على الكفر التي جاءت هذه الصيغة دالة عليها- هو ذكر الوفاة معها "تتوفاهم"؛ ما يفيد أن تلك الأنفس حملت ظلم نفسها طوال عُمُرِها حتى لحظة الوفاة ثم قُبضت عليه. وهذا من روائع إعجاز بيان آيات الله. بالإضافة إلى وقوع جملة ظلم النفس الخبرية كلها في موقع نصب على الحال، حالِ الموت للمُتَوَفَّيْن المتحدث عنهم، ليس في هذا الموضع فحسب بل وفي الموضع الآخر وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ **ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ** مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (النحل: ٢٨)، وظلم النفس هنا أيضًا هو ذلك الظلم العظيم المتمثل في الشرك بالله والتمسك به والاستمرار عليه حتى حال الوفاة والقبض، "أي: حال كونهم مستمرين على الشرك الذي هو ظلمٌ منهم لأنفسهم، وأي ظلمٍ حيث عرضوها للعذابِ المقيم". (الألوسي، د. ت: ١٤- ١٢٨). ثم جاءت الجملة الفعلية المعقبة تحقيقًا لما حاق بهم من ذل واستسلام على رؤوس الأشهاد(*).

(*) على أحد الأقوال في إعراب الجملة الفعلية "فألقوا السلم" وهو أنها حال من الضمير في "ألقَوْا"، أي: "استسلموا قائلين ما كنا...". انظر مثلًا: (الألوسي، د. ت: ١٤- ١٢٩، والدرويش، ٢٠٠٣: ٥- ٢٨٩).

وأما النوع الثاني لصيغ الأسلوبِ الخبريّ المُثْبت، وهو: الجملة الفعلية وحدها، فتتكون من المفعول المقدم وهو النفس مجموعةً يليها فعل الظلم على صيغة "**وأنفسهم يظلمون، وأنفسهم كانوا يظلمون**" لتحمل **دلالة** ختم الله على قلوب أولئك المتحدث عنهم من الظالمين أنفسهم وهو عذابٌ دنيوي حال الحياة بخلاف الصيغة السابقة إذ كانت حال الوفاة والاحتضار، وقد تضمنت هذه الصيغةَ آيتان اثنتان- أيضًا- في كتاب الله تعالى وقعت أولاهما في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا **وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾. (الأعراف: ١٧٧).

يقول الإمام ابن عاشور: "ظلموا أنفسهم بما أحلوه بها من الكفر الذي جعلهم مذمومين في الدنيا ومعذبين في الآخرة". (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٩/١٨٠). لقد أغرق أولئك الكفار في غيهم وضلالهم وتكذيبهم بآيات الله تكذيبًا لا رجعة عنه أبدًا تمامًا كاستحالة رجوع الجلد المسلوخ إلى الذبيحة بعد سلخه أبدًا، إذ قد سبق لتمثيلِ تكذيبِهم بآيات الله بتكذيب الذي أتته آياتِهِ سبحانه فانسلخ عنها(**)؛ فكان جزاؤهم بعد كل هذا التكذيب المُغرِق ختمًا على قلوبهم بعدم خروج الكفرِ منها وعدم دخول الإيمان إليها وهو من جنس ما أرادوه.

(**) وهو قوله تعالى في الآية قبل السابقة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ﴾. (الأعراف: ١٧٥).

وثانيةُ تلك الآيتين قوله تعالى من سورة يونس: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً **وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾. (يونس: ٤٤)، فقد جاءت في سياق ذكر أفانين جدالهم في باطلهم ولَجّهم في ظلمات ضلالهم وإنكارهم الحشر والجزاء والنعيم الأخرويّ. (البقاعي، د. ت: ٩- ١٣١)، واتباع الشركاء واتهام القرآن بالافتراء والتكذيب به كما دلت الآيات السابقة(***).

(***) وهي الآيات (٣٥- ٤٣) من سورة يونس عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣)﴾.

فكان مصيرهم العمى والضلال والختم على قلوبهم بما ظلموا أنفسهم. وهو مستفاد من قوله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ (يونس: ٤٢- ٤٣)، فهم يسمعون ويُخْبِر عنهم الحقُّ بأنهم صم، وينظرون ويُخْبِرُ عنهم بأنهم عُمْي، رغم عدم تعطل آلتي السمع والإبصار لديهم، إذن فما هو

إلا الختم على قلوبهم؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. وإن لم يكن عمى القلوب هو الختم على القلب كما أسلف الباحث، فماذا إذن؟! وهذا أيضًا من آيات الله في إبراز روائع بيان القرآن وإعجاز نظمه، وهي آية أخرى فيها حِكمةٌ بالغة!

المحور الثاني- بلاغة ظلم النفس في أسلوب الشرط في القرآن الكريم:

في هذا المحور نرى أن مفردة ظلم النفس في القرآن الكريم وقعَت ضمن أسلوب الشرط بنوعي أدواته الجازمة وغير الجازمة، والمُلاحظ على مجيئها في هذا الأسلوب أنها إما أن تقع في جملة الشرط ذاتها أو معطوفة عليها والمعطوف يأخذ حكم ما عُطفَ عليه طبعًا، وإما أن تقع في جملة جواب ذلك الشرط. فأما ما وقع في جملة الشرط فهي ثلاثة مواضع من النظم الشريف، وأما ما وقع في جملة الجواب فموضعان فقط تضمَّنَ أحدهما بلاغةً غير بلاغةِ السياق هي بلاغة الموقع، وتلك آية أخرى من آيات إعجاز كتاب الله فيها حكمة بالغة! بينما لم تأت مفردتنا هذه في الموقعين معًا- الشرط والجواب- البتة في النظم الكريم.

فإذا بدأنا بتلك الصيغة من الشرط التي تضمنت ظلم النفس في جملته الأولى وهي جملة الشرط ذاتها، لمحنا دلالة بليغة هي **دلالة** المغفرة والتوبة على هؤلاء الظالمين أنفسهم المتحدث عنهم متضمنة ثلاث دلالات فرعية هي:

الأولى: هي أنها لا تجيء إلا مع المؤمنين الذين لا يُصِرُّونَ على ما فعلوا من خطايا، ولا تأتي مع غيرهم ممن كفر أو لجَّ في طغيانه أو أعرض واستكبر وعاند واستمرأ التكذيب كما رأينا في المحورِ السابق.

الثانية: دلالة بليغة أيضًا متمثلة في أن هذه المفردة تَرِدُ مقرونةً بذكر الله أو بالاستغفار الذي هو من أعظم ما يذُكر الله- جل وعز- به.

أما **الأخيرة:** فهي مترتبة على الاثنتين الأُول وهي قَبُولُ المولى سبحانه لتوبة هؤلاء المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم بهفوة أو زلة أو نسيانٍ، ومغفرته سبحانه وتعالى لهم.

وهذه الدلالات الثلاث متحققة في المواضع الثلاثة التي وردت فيها هذه الصيغة في القرآن الكريم، التي أولها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً **أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. (آل عمران: ١٣٥)، وثانيها، قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ **إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ

وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾. (النساء: ٦٤)، وثالثها، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً **أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ** ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾. (النساء: ١١٠).

فأما الدلالة الأولى (أن المخاطبين بها مؤمنون غيرُ مُصِرِّيْنَ على المعصية)، فورد في الآية الأولى صراحة في قوله: "**وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا**"، وأما في الآية الثانية فنص عليه الإمام الألوسي إثر تفسيره لمفردة "**جَاءُوكَ**" بقوله: "على إثر ظلمهم بلا ريث متوسلين بك تائبين عن جناياتهم غير جامعين حشفًا وسوء كيلة". (الألوسي، د. ت: ٥– ٧٠)، وهذا الفعل وتلك الأوبة لا تصدر إلا من مؤمن. وأما في الآية الثالثة فكثيرة هي أوجه الدلالة عليها، منها ما رواه الضحاك من أنَّ هذه الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة عندما جاء إلى النبي وقال: هل لي من توبة؟ فنزلت. (الشوكاني، د. ت: ١– ٨١٤)، ومعلوم أن سيدنا وحشي من أصحاب رسول الله.

وأما الدلالة الثانية (ورود هذه الصيغة مقرونةً بذكر الله أو بالاستغفار) فقد صرحت بها الآيات الثلاث جميعها "**ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**"، و"**فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ**"، و"**ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ**" على الترتيب. والملاحظ أن فعل الاستغفار فيها جميعًا جاء بصيغة استفعل التي تفيد طلب المغفرة وإذا كان من مؤمن عاصٍ؛ فإنه سيكون طلبًا حثيثًا.

أما الدلالة الأخيرة (وهي قبول المولى سبحانه لتوبة هؤلاء المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم)، فوردت صراحة في الآيتين الثانية والثالثة "**لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً**"، و"**يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً**" يقول ابن عاشور: "فكانت صيغة غفورًا رحيمًا مع يجد دالّة على القبول من كل تائب". (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٥– ١٩٦)، ووردت ضمنًا في الآية الأولى مشمولة في غرض الاستفهام وهو النفي في: ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ "والمقصود تسديد مبادرتهم إلى استغفار الله عقب الذنب". (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٤– ٩٣).

أما تركيب الشرط الذي تضمن ظلم النفس في جواب الشرط، وهي جملة جواب الشرط، فَلمحنا فيها **دلالة** بليغة تتعلق بأخص خصوصيات الأسرة المسلمة– في الموضعين كليهما اللذَيْنِ وردا فيها في التنزيل الحكيم– وهي: التشديد على حرمة إمساك المرأة المطلقة اعتداءً عليها وإيقاعًا للضرر بها.

وهي المتحققة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا **وَمَنْ يَفْعَلْ** ذَلِكَ **فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (البقرة: ٢٣١)، وقوله أيضًا: ﴿يا أيها النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ **وَمَنْ** يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ **فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾. (الطلاق: ١).

ففي الموضعين تشديد على ظلم النفس المؤكد بقد الواقعة في جواب الشرط، والناتج عن تحقق الشرط فيه، إنه شرط واحد في كلا الآيتين وهو من أخَّرَ المطلقة بعد بلوغ أجلها واكتمال عدَّتها فلا هو راجعَها وأعادها ولا هو سرَّحها وأطلقها، وهذا ما نصت عليه جماهير المفسرين في تحديد المراد بظلم النفس في هذا السياق "إن الذي يمسك المطلقة ضرارًا واعتداء يظلم نفسه. فهي أخته من نفسه، فإن ظلمها فقد ظلم نفسه. وهو يظلم نفسه بإيرادها مورد المعصية، والجموح بها عن طريق الطاعة". (قطب، ١٩٨٠: ١- ٢٥١). ويحتمل كذلك مَن أخَّر المطلقة بتطليقها في غير طهر "ولا يجوز طلاق الحائض؛ لأنها تطول العدة عليها". (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٦- ٢٣٢).

وهذه هي اللمسة الأولى كما يقول صاحب الظلال، وأما اللمسة الأخرى التي يضيفها الباحث فهي حسن الموقع الذي وردت فيه صيغة ظلم النفس هذه، فهي من جهة وقعت آخر موضع في القرآن العظيم للحديث عن ظلم النفس؛ ليقرر أخيرًا أن المرأة جنسٌ من ذات الرجل بظلمها يظلم نفسه، ومن جهة أخرى فإن هذه الآية وقعت مطلع سورة الطلاق المتعلقة بأحكام تطليق النساء؛ لتقرر أيضًا أهمية هذه المسألة وهي التشديد على حرمة التأخير المتعمد للمرأة المطلقة.

المحور الثالث- بلاغة ظلم النفس في أسلوب الطلب في القرآن الكريم:

وهنا فصلٌ بديع أيضًا يندرج تحت المنظومة البلاغية المُحكمة لأسلوب ظلم النفس في القرآن الكريم، وهو ظلم النفس المُتَضَمَّنُ في أسلوب الطلب: وهو ما استدعى مطلوبًا غير حاصلٍ وقت الطلب. (عباس، ١٩٩٧: ١٤٧، وأبو سمعان، ٢٠١٦: ٦٢)، وهو خمسة أنواع، ورد منها في بحثنا هذا اثنان فقط هما النهي، والنداء.

فأما النهي فورد معه في جملة النهي ذاتها لا في جملة الجواب، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا **تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. (التوبة: ٣٦). نلحظ في جملة النهي الطلبي هذه أن الآية عبَّرت عن إنساءِ بعض الأشهر الحُرُمِ أي تأخيرها وتحريم غيرها مكانها؛ ليوافقوا الشهر الذي يزعمون حل القتال فيه، فكان إذا جاء الشهر وهم محاربون شقَّ عليهم تركُه. (البقاعي، د. ت: ٨- ٤٥٠- ٤٥١)، عبَّرت عنه بظلم النفس، ثم إن هذا

الإنْساء كان واقعًا قبل وقت التحدث؛ ففي اختيار النهي الحقيقي بيانٌ رادعٌ ونهيٌ قاطعٌ لا هوادةَ فيه، ولا تهاوُنَ معه بعدم جواز خرق حرمة الأشهر الحُرم بألا يُبتدأ بالقتال فيها.

وأما ظلم النفس الذي وقع في أسلوب النداء الطلبي فوقع كله في جملة الجواب الندائي لا في جملة النداء ذاتها، لتشير – هذه الصيغة لظلم النفس– من طرفٍ خفي إلى **دلالة** توبة العبد إلى مولاه وما يكتنف حال التوبة تلك من إقرار مؤكد بالذنب تمهيدًا لقبول العذر.

وذلك في أربعة مواضع من التنزيل الحكيم، هي: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ **إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ** بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. (البقرة: ٥٤)، وقوله تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا **ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا** وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾. (الأعراف: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ **إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. (النمل: ٤٤)، وقوله تعالى: "﴿قَالَ رَبِّ **إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. (القصص: ١٦).

نلحظ في الصيغ اللغوية المتكررة لأسلوب ظلم النفس الطلبي هذا، أولًا: وقوعها جميعًا في جواب النداء، ثم تأكيدها إما بالإثبات وحده أو بالإثبات مع إنَّ، ثم تقديم فاعل الظلم على المفعول "ظلمتُ، ظلمْنَا" إذ يدل على مزيد إقرار صاحب الذنب لنفسه، بخلاف أسلوب ظلم النفس الذي ورد في الخبر البلاغي بنوعيه المثبت والمنفي حيثُ كان يتقدم فيه المفعول على فاعله لإفادة التخصيص على طريقة "وأنفسهم كانوا يظلمون"، وأخيرًا فإن هذا الأسلوب الذي تشيع منه الرغبة الجامحة للتوبة والرجعى بما فيه من ذُلِّ الاستسلام والخضوع، يلقى قَبولًا ربَّانيًّا بقبول التوبة حيث صُرِّح بالقبول في غير موضع "فَغَفَرَ لَهُ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ".

وهنا نجد هذه الصيغة الطلبية الندائية تأتي في سياقات التوبة والأوبة إلى البارئ الأعلى إثر اقتراف الذنب الذي هو أحد أنواع ظلم النفس "وظلم النفس شاع إطلاقه في القرآن على الشرك والكفر، وأطلق أيضًا على ارتكاب المعاصي". (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٥– ١٩٥)، إنه نداء الرجعى إلى الله بما فيه من تذلل وخضوع وبما فيه من إقرار بالذنب. وبما فيه من انقياد واستسلام للمولى الجليل كما في آية النمل "وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ"، أو بدعاء مع تذلل وخضوع خرج إليه الأمر كما في آية القصص "فَاغْفِرْ لِي"، أو اقترن بشرط يَضْحَكُ لهُ المولى الجليل سبحانه ضحكًا يليق بجلال وجهه كما في آية الأعراف "وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ". أو بالتحبب والتقرب

المستفاد من إضافة القوم لنفس النبي. (أبو حفص الحنبلي، ١٩٩٨: ٢- ٧٩- ٨٠) كما في آية سورة البقرة " يَا قَوْمِ".

وآخر ملمح دلالي لبلاغة هذه الصيغة، هو علة السرعة في مغفرة الله تعالى لهؤلاء الظالمين بمجرد أَوْبَتِهِمْ ورجعتهم؛ ذلك أن هذا الظلم لا يتعلق بحقوق الغير البتة وإنما يتعلق بذوات أنفسهم فقط، أي بينهم وبين خالقهم الرحيم الذي تكفل بقبول التوبة من عبده التائب، "لكن هذا الظلم من حقه أن يُقيد لئلا يوهم إطلاقه إنه ظلم الغير لأن الأصل في الظلم ما يتعدى، فلذلك قال ظلمتم أنفسكم" (الرازي، ١٩٨١: ٣- ٨٥).

المحور الرابع- بلاغة الوصف بظلم النفس في القرآن الكريم:

ما بقي من آيات ظلم النفس في القرآن الكريم يُصَنَّف ضمن هذا المبحث، حيث وقعت فيه مفردات ظلم النفس وصفًا للمفرد أو للجمع أو حالاً لهما، والحال وصف في أصل معناه لكنه تميَّزَ عن النعت بدلالته على الهيئة إذ إنَّ النعت لم يُسَق للدلالة عليها. (ابن عقيل، ٢٠٠٥: ٢- ١٩١، وابن هشام، ٢٠٠٤: ٢- ٢٤٨). أو ما عُطف على الوصف أو على الحال فيأخذ معناه.

فإن كانت وصفًا أو حالًا للجمع أو معطوفًا عليهما؛ فإنها **تدل على** الإهلاك والإفناء لقومٍ سابقين ظلموا أنفسهم بالكفر والإشراك بالرحمن؛ فأتت عليهم سنة الله تعالى بأخذهم بعذاب مبيدٍ مفنٍ لا يُبقي منهم ولا يذَر، في حين أن جملة ظلم النفس هذه عندما وقعت وصفًا أو حالًا، أو معطوفًا عليهما، أو ما في حكمهما خاصة بالمفرد تغيَّرت الدلالة المحمولة فيها **لتدل على** مجرد حالة فردية لا جمعية، وعذابٍ خاصٍ لا عذاب عامٍ شاملٍ للقوم كما سبق ورأينا في غيرها من الصيغ.

فربما كانت هذه الحالة الفردية الخاصة معصيةً صغيرةً سببها غلبة هوى النفس أو غلبة شهوةٍ أو طمع، فمهما كانت تبقى صغيرة مقارنة بالظلم العظيم وهو الشرك أو الكفر؛ لذلك رأيناها تأتي مع العباد المؤمنين أو قسم من المُصْطَفَيْن من عباده سبحانه وتعالى كما في موضع سورة فاطر. أو قد تكون تلك الحالة الفردية شركًا بالله أو كفرًا به سبحانه لكنه كفرٌ خاص بصاحبه لا يتجاوزه ولا يتعداه؛ لذا جاء العذاب أو العقاب له خاصًا به دون غيره أو إهلاكًا لجنته وحده دون جِنان غيره كما في موضع سورةِ الكهف. كما قد جاءت هذه الحالة الفردية لصورة طائفة معينة من الأقوام كاليهود أو النصارى أو الجزءِ الكافر منهما بالنبي محمد- صلى الله عليه وسلم- ورسالته كما في موضع سورة الصافات؛ فكان مردُّ ظلم تلك الطائفة من العذاب أو العقوبة عائدًا عليها موصومًا بها وحدها أبدًا دلَّ على ذلك آيات تترى من التنزيل الحكيم(*).

(*) منها مثلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. (المائدة: ١٨).

أولًا: المواضع التي جاء فيها ظلم النفس وصفًا للجمع أو حالًا له أو معطوفًا عليه أو متعلقًا به، ونطالع آي الذكر الحكيم فنواجه في مشاهد سورة "إبراهيم" عليه السلام ذلك المشهد الرهيب من مشاهد يوم الحساب، مشهد أولئك المُغْرِقين في الظلم بتبديلهم نعمة الله كفرًا شاخصي الأبصار مسرعين إلى المُنادي لا يلتفتون يمنة أو يسرة، قد تَلَبَّسَهُمُ الجزع والذعر مع الذل والصَّغَار، قد أصابهم ما أصاب الأموات من سكون الأعين فلا تَطْرف، ومن هواءِ القلب وخوائه من الحياة والجُرأة والقوة، وهم بعد ذلك متذللين إلى الله أن يُعيدَهُم إلى الدنيا تارة أخرى ليتداركوا بعضًا مما فاتهم، نادمين على أفعالهم ولات ساعة مندم، ثم يجيء رد الجبار – جل جلاله– عليهم بأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بعنادهم وقَسَمِهم أنهم خالدون في دار الدنيا، حتى إذا ساق النظم الكريم جزءًا مُهمًّا من حيثيات ظلمهم أنفسهم في دار العمل، وهو أنهم سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم رأينا هذه الصيغة لظلم النفس– صيغة وصف الجمع– حاضرة عند قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ **ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾. (إبراهيم: ٤٥).

جاءت لتحمل معها دلالة الإهلاك والإدالة للقوم السابقين في ظلم أنفسهم بالكفر والإشراك بالرحمن ووضع الأشياء في غير مواضعها. (ابن كثير، د. ت: ٤– ٥١٦)؛ فأتت عليهم سنة الله تعالى بأخذهم بعذاب مبيدٍ مفنٍ. وهي ذات العلة المنطبقة عليكم أيها المخاطبون؛ إذ لم يكن لكم في إهلاك أولئك السابقين بظلمهم معتبر، ولم يكن لكم فيهم مزدجر، وهذه أيضًا آية وحكمةٌ بيانية بالغة! فَسِرْتُم سيرتَهم الأولى في الظلم والكفر والمعاصي غير آبهين بما لاقوا بسبب ما اجترحوا على أنفسهم من موبقات وظلمات. (أبو السعود، د. ت: ٥– ٥٧).

أما بالنسبة لموقع الجملة قيد البحث– جملة ظلم النفس– الذي يحول دون إعرابها وصفًا؛ كونها صلةً للموصول، فعلى الرغم من ذلك فإنَّ في إزالتها للإبهام الذي اكتنف الاسم الموصول تَضَمُّنُ معنى النعت لا لفظه، ولو حُذِفَتْ لظلَّ المعنى مبهمًا "في مساكن الذين"، ولظل المخاطب يتساءل ما صفة هؤلاء القوم؟ وعليه تكون قد نُزِّلَت منزلة وصف الجمع.

ودليلٌ آخر هو فاعل فعل الجملة المعطوفة "وتبين لكم" الذي تأولَّه الإمامُ العكبريُّ حالًا دلَّ عليه مضمون الكلام، أي تبين لكم حالُهم بالإخبار والمشاهدة. (العكبري، ٢٠٠١: ٤٩٥). ومعلوم أن

الحال في أصل معناه يحمل معنى النعت. ودليل ثالث هو ما قرره الإمام البقاعي بشأن الواو في مطلع الآية والجملة التي تليها "وسكنتم" حيث أثبت أنها واو الحال، حيث قال عند حديثه عن الواو في سكنتم: "والحال أنكم سكنتم في الدنيا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بوضعهم الأشياء في غير موضعها كما فعلتم أنتم، فأحلوا قومهم مثلكم دار البوار". (البقاعي، د. ت: ١٠- ٤٦٣).

وثاني هذه المواضع لصيغة وصف الجمع وردت في سورة سبأ إثرَ تَفَضُّلِهِ سبحانه وتعالى عليهم بغاية الألطاف والمنن من ألوان الرفق بهم عند أسفارهم حيث طوى لهم بُعدَ الطُّرُق بجعلِهِ لهم من القرى محطات للراحة والتزود بالماء والطعام؛ فاستحال عذاب السفر لديهم راحة يركبونها متى شاءوا ليلا أو نهارًا(*)، وذلك عند قوله سبحانه: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا **وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. (سبأ: ١٩).

(*) وذلك قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾.

لقد بطر أولئك القوم النعمة وغمطوها وعدوا نعمة ربهم نقمة وإحسانه إليهم إساءة فكفروا تلك النعمة واستبدلوا وحشة الديار وطول السفر الأدنى بالأُنس الذي هو خير، وهذا من أبلغ الكفر بنعمة الله إذ حلَّت، عندها تجيء سنة الله بالرد المُزَلْزِلِ المستأصل محمولًا بصيغة الوصف الجمعي لظلم النفس "وظلموا أنفسهم" فصَيَّرَهُم بذلك التمزيق والتفريق الرهيب الذي لم يُبْق منهم باقية عظاتٍ وعبرًا يُتحدَّثُ بهم ويُضربُ بتمزيقهم المثل. (ابن كثير، د. ت: ٦- ٥٠٩، والألوسي، د. ت: ٢٢- ١٣١). وعلى الرغم من أنّ جملة ظلم النفس في موقع نصب عطفًا على جملة فقالوا (أبو حيان، ١٩٩٣: ٧- ٢٦٢)(**)، فإنها تبين حال أولئك الظالمين "وقال الكلبي هو حال. أي: وقد ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل فجعلناهم أحاديث"(***)، ومن المعلوم أن الحال وصف في المعنى.

(**) جملة "فقالوا" في مطلع الآية في محل نصب؛ لأنها معطوفة على جملة "سيروا فيها" التي موقعها النصب على أنها مقول لقول محذوف. في الآية السابقة، وهي قوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾. (سبأ: ١٨).

(***) ومن الأوجه الجائزة أيضًا في إعراب جملة "وظلموا أنفسهم" أنها في موضع نصب حال، على تقدير: فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ظالمين... .

ثانيًا: المواضع التي جاء فيها ظلم النفس وصفًا للمفرد أو حالًا له أو معطوفًا عليه أو متعلقًا به، مع **دلالتها** على حالة عصيانٍ فردية لا جمعية، وعذابٍ خاصٍ لا عذاب عامٍ شاملٍ للقوم كما كان في

غيرها من الصيغ. ونطالع آي الذكر الحكيم تارةً أخرى فنجد لتلك الحالة الفردية المُعبَّرِ عنها بصيغتنا هذه ثلاثة مواضع، منها حالة المعصية الفردية بصغير الذنوب في حقِّ جزءٍ من عباد الله تعالى الموصوفين في الآية بالمصطفَيْن وهي التي في سورة فاطر عند قوله تعالى: "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" (فاطر: ٣٢).

فَـ "مِنْ عبادنا" حال (الدرويش، ٢٠٠٣: ٨- ١٥٥)، وجملة ظلم النفس الاسمية "منهم ظالم لنفسه" معطوفة على الحال فتأخذ معناه كوصف لما قبله وهو العباد، فالقسم الأول من هؤلاء العباد الواقعين حالًا: ظالمين لأنفسهم.

والمقصود هنا ظلمٌ فرديٌّ شخصيّ لا ظلمٌ عامٌّ جمعيّ، ثم إنه ظلمُ معصيةٍ لا ظلمُ كفرٍ وإشراك "فمنهم ظالم وهو المسيء". (الرازي، ١٩٨١: ٢٦- ٢٤). وعليه يكون جزاؤه مجرد عقاب يُصَحِّحُ له سَيْرَهُ ويردُّه إلى جادة الصواب ويكفر عنه إثم معصيته، وليس إهلاكًا وإفناءً مبيدًا؛ لأنه لا يزال من عبادنا الذين اصطفيناهم "فإن قال قائل: كيف قال مَنْ ذَكَرَ في حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم؟!... فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية". (الرازي، ١٩٨١: ٢٦- ٢٤).

أما الحالة الفردية التي حملتها هذه الصيغة في موضعها الثاني فكانت لحالةِ شركٍ بالله وكفرٍ به سبحانه لكنها خاصة بصاحبها لم تتجاوزه ولم تتعدَه، وهي تلك التي في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ **وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾. (الكهف: ٣٥) ؛ فقد اتفق جُلُّ المفسرين على كفرية الظالم لنفسه في هذا الموضع. (البغوي، ١٩٨٧: ٥/١٧١)، بل أورد بعضهم ذلك صراحة "ظالم لنفسه بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد". (ابن كثير، د. ت: ٥- ١٥٧).

فهنا يظهر نوع آخر من الحالة الفردية حالةُ كافر بمولاه كفرًا صريحًا لا مراء فيه بل زاده سوءًا ما اكتنفَ صاحبه من اغترار وعُنجهية مَقيتةٍ أنكر معها قيام الساعة ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾. (الكهف: ٣٦)، كما حاورَهُ صاحبه بكفريته ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾. (الكهف: ٣٧)؛ لذا جاء العذاب أو العقاب له خاصًا به دون غيره وهو إهلاكٌ لجنته وَحْدَهُ دون جِنان غيره ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾. (الكهف: ٤٢).

أما الحالة الثالثة والأخيرة فقد جاءت للتعبير عن طائفة معينة من الأقوام كاليهود أو النصارى أو الجزء الكافر منهما بالنبي محمد- صلى الله عليه وسلم- وبرسالته، وهي تلك المتمثلة في قوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ **وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾. (الصافات: ١١٣).

وهنا عمل فردي أيضًا خاص بطائفةٍ معينةٍ من المكلفين هم اليهود أو اليهود والنصارى أو من كَفَرَ منهم- تحديدًا- بسيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- ونبوته، على اعتبار أن تلكم الطائفتين من ذرية نبي الله إسحاق صلى الله عليهم وسلم. (القرطبي، ٢٠٠٦: ١٨- ٨٣، والثعالبي، ١٩٩٩: ٥- ٤٥).

ثم جاء الظالم معطوفًا على المحسن ليشمل في معناه وصفاً بالظلم للمفرد، إلا أن البارز في هذا التعبير هو وصف الظالم بوصف "المبين" وهي المرة الأولى والوحيدة التي يُوصفُ ظالمُ نفسِهِ بهذا الوصف في القرآن الكريم، "أي: ظاهر الظلم، وفيه تنبيه على أنَّ النسب لا تأثير له في الهداية والضلال، وأنَّ الظلم في أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة ولا عيب". (أبو السعود، د. ت: ٧- ٢٠٢)؛ من هنا كان مردّ ظلم تلك الطائفة وجزاؤه من العذاب أو العقوبة عائدًا عليها موصومًا بها وحدها دون غيرها دلَّ على ذلك رجوع الضمير للنفس في قوله "لنفسه"، كما دلت عليه أيضًا آياتٌ أخرى كثيرة؛ فإنه لا تزرُ عند الله وازرةٌ وزرَ أخرى.

●خاتمة:

وهكذا يرسو هذه البحث العميق في بلاغة تراكيب ظلم النفس في القرآن الكريم إلى مرفأ نتائجه مسجلًا أبرز ما توصل إليه:

١- لأسلوب ظلم النفس في القرآن الكريم صيغٌ تعبيرية فريدة بحيث تتوزع في منظومةٍ بديعةٍ مُحكمة على أربعة أساليب بلاغية، هي: الخبر مثبتًا ومنفيًّا، والنهي، والنداء، والشرط، بالإضافة إلى وصف المفرد والجمع وما يلحق بهما.

٢- كان مجمل عِداد هذه الصيغ بصورها المتعددة في القرآن الكريم إحدى عشرة صيغة موزَّعة على الأساليب البلاغية السابقة في ثمانية وعشرين آية من التنزيل الحكيم.

٣- كان لكل صيغة أو صورة من الصور أو الصيغ السابقة دلالتها الدقيقة على المعنى المُراد بظلم النفس في القرآن الكريم.

٤- التقاء كل صيغة مع دلالتها الدقيقة يكشف سرًّا من أسرار إعجاز القرآن البلاغي في اختيار الصيغة المناسبة للمعنى الدقيق المُراد؛ ما يجعل المتلقي يدرك دلالة ظلم النفس الدقيقة قبل إكمال سياق الآيات الواردة فيها.

٥- تلخيص هذه الدلالات الدقيقة كالآتي:

أ- الصيغ المُتَضَمَّنَة في أسلوب الخبر المنفي بصوره الثلاثة، هي:

- الصيغة الأولى تحمل: دلالة الإهلاك والإبادة التامة للظالمين بعد بالغ الجهد في إنذارهم.
- الصيغة الثانية تحمل: دلالة العقوبة الرادعة عن ظلم النفس بكفران نعم الله وآلائه.
- الصيغة الثالثة: تحتمل الدلالتين السابقتين.

ب- الصيغ المُتَضَمَّنَة في أسلوب الخبر المثبت بصورتيه، هي:

- الصورة الأولى: تحمل دلالة التمادي في الكفر حتى الموت عليه.
- الصورة الثانية: تحمل دلالة ختم الله على قلوب أولئك الظالمين أنفسهم وهو عذابٌ دنيويّ.

ت- الصيغ المُتَضَمَّنَة في أسلوب الشرط بصورتَيْه، هي:

- الصورة الأولى: تحمل دلالة المغفرة والتوبة على هؤلاء الظالمين أنفسهم المتحدث عنهم.
- الصورة الثانية: تحمل دلالة التشديد على حرمة إمساك المرأة المطلقة؛ إيقاعًا للضرر بها.

ث- الصيغ المُتَضَمَّنَة في أسلوب الطلب بصورتيه، هي:

- الصورة الأولى: تحمل دلالة النهي القاطع عن خرق حرمة الأشهر الحُرم.
- الصورة الثانية: دلالة توبة العبد إلى مولاه وما يكتنفها من إقرارٍ بالذنب.

ج- الصيغ المُتَضَمَّنَة في أسلوب الوصف والحال بصورتَيْهْ، هي:

- الصورة الأولى: تحمل دلالة الإهلاك والإفناء لقومٍ سابقين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله، والإشراك به.
- الصورة الثانية: تحمل دلالة معصية حالة فردية لا جمعية، وعذابٍ خاصٍ لا عذاب عامٍ شاملٍ.

•ثبت المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١- ابن عاشور، محمد الطاهر، ت١٣٩٣هـ، ١٩٨٦، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، د ط، الدار التونسية للنشر، تونس.

٢- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، ت٥٤٦هـ،٢٠٠١، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣- ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن ت٧٦٩هـ، ٢٠٠٥، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، دار التراث، القاهرة.
٤- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل ت٧٧٤هـ، (د. ت)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، طبعة مقابلة على النسخة الأزهرية ودار الكتب المصرية، مؤسسة قرطبة، القاهرة.
٥- أبو السعود، محمد بن محمد،٩٥١هـ، (د.ت)، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، د ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦- أبو حفص الحنبلي، عمر بن علي، ت٨٨٠هـ، ١٩٩٨، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧- أبو حيان، محمد بن يوسف، ت ٧٤٥هـ، ١٩٩٣، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨- أبو سمعان، محمد، ٢٠١٥، النظم في سورة الإسراء دراسة أسلوبية بلاغية (أطروحة دكتوراه غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر.
٩- أبو موسى، محمد، (د. ت)، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٠- أبو سمعان، محمد، ٢٠١٦، القطاف الداني في علم المعاني، ط١، مكتبة الطالب، غزة.
١١- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد ت٥٠٢هـ، ١٩٩٠، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان الداودي، ط١، دار القلم، دمشق.
١٢- الألوسي، شهاب الدين محمود، ت١٢٧٠هـ، (د.ت)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، د.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٣- الأنصاري، ابن هشام ت٧٦١هـ، ٢٠٠٤، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، دار الطلائع، القاهرة.
١٤- البغوي، الحسين بن مسعود ت٥١٦هـ، ١٩٨٧، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، د ط، دار طيبة، الرياض.
١٥- البقاعي، إبراهيم بن عمر، ت٨٨٥هـ، (د.ت)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، د ط، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١٦- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد ت٨٧٥هـ، ١٩٩٩، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧- الجرجاني، عبد القاهر، ت٤٧١هـ، (د.ت)، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دط، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٨- الدرويش، محي الدين، ٢٠٠٣، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط٩، دار اليمامة وابن كثير، بيروت.

١٩- الرازي، فخر الدين محمد، ت٦٠٤هـ، ١٩٨١، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

٢٠- الزمخشري، محمود بن عمر، ت٥٣٨هـ، ١٩٩٨، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: أحمد عبد الموجود وآخرون، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض.

٢١- الشعراوي، محمد متولي، ١٩٩١، خواطر حول القرآن الكريم، خرج أحاديثه: أحمد عمر هاشم، طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة.

٢٢- الشوكاني، محمد بن علي، ت١٢٥٠هـ، (د.ت)، فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دط، دار الوفاء.

٢٣- عامر، فتحي أحمد، ١٩٧٦، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، دط، منشأة المعارف، الإسكندرية.

٢٤- عباس، فضل حسن، ١٩٩٧، البلاغة فنونها وأفنانها، ط٤، دار الفرقان، الأردن.

٢٥- عبد الباقي، محمد فؤاد، ١٩٩٦، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط١، دار الحديث، القاهرة.

٢٦- العسكري، أبو هلال الحسن بن سهل، ت٣٩٥هـ، ٢٠١٣، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، المكتبة العصرية، بيروت.

٢٧- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، ت٦١٦هـ، ٢٠٠١، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: سعد كريم الفقي، ط١، دار اليقين، المنصورة.

٢٨- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت٦٧١هـ، ٢٠٠٦، الجامعُ لأحكام القرآن والمبيّنُ لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٩- قطب، سيد، ١٩٨٠، في ظلال القرآن، ط٩، دار الشروق، القاه